

حكايات مقدسية: آخر حراس القدس

وليد عبير (المهاجر كساب)

عضو اتحاد كُتَّاب مصر

كانت شمس القدس تميل حزينةً نحو المغيب.. بدا قرصها ملتهباً ينزف دماً وسط سماءٍ مكفهرةٍ هي الأخرى.. سبعة وأربعون يوماً من الدفاع المستميت عن المدينة المقدسة فُقدت فيها أرواحٌ كثيرةٌ من عساكر الجيش العثماني!

يوماً بكى فيه الشجر والحجر!! فمن يصدق أن القدس سوف تستسلم لهؤلاء البريطانيين ذوي السُّحن الكالحة؟! وكيف تُرغم العروس على الخضوع لهؤلاء المناكيد؟! هل فقدت أهلها أم هم من باعوها بثمانٍ بخسٍ وانشغلوا عنها بخلافاتهم وسعيهم حول العروش؟! وما الذي يشغل بقية المسلمين عن قبلتهم الأولى؟!!

أمسك حسن غصن زيتون يابس وجعل ينبش به الأرض.. كان مستغرقاً في فكره إلى الحد الذي لم يسمع زميله عثمان وهو يناديه عدة مرات!

- حسن، ألا تسمعني؟! ناديت عليك مراراً.. ما بك؟!!

- لا شيء يا عزيزي.. لا شيء!

- كيف لا وأنت لم تذق طعاماً منذ أيام.. نراك شارداً الذهن دائماً، فما الذي يشغلك؟!!

- يؤلمني تسليم القدس بعد أربعمئة عام من مسؤوليتنا الكاملة عنها.. كيف سنواجه أهلنا؟! هل سيعذروننا؟ وإن عذرنا أهلونا فماذا سيقول عنا التاريخ؟! سيلعننا ويقول إننا انسحبنا مثل الجرذان..

قاطعته عثمان بأسى بالغ:

- لكن ما حيلتنا؟! نحن مجرد جنود نأتمر بأمر قادتنا؛ فإن كان هناك من إثم فسيحمله القادة المتصارعون.. هم وحدهم..

- هذا كلام المفلسين؛ فكلنا شركاء في بيعها.. لكل منا كِفْلٌ من هذا الوزر!

- هذا يعني أنك لن تعود معنا إلى الأستانة.. أليس كذلك؟!

- بلى؛ كيف أعود؟! وماذا أقول لأبي الذي ودّعني موصياً إياي بالقدس وأهلها؟!

- يا حسن لا تحمّل نفسك فوق ما تطيق.. نحن هنا جنود.. جنود فحسب.. أنت مجرد عريف صغير؛ ليس لك من الأمر شيء!

ظل الجنديان يتجادلان وقتاً طال أو قصر حتى انطلقت الصافرة.. هرول الجميع وأخذ كلُّ منهم مكانه من الصفوف.. لحظاتٌ وجاء القائد متباطئاً تعلق وجهه علامات الحزن.. وقف متظاهراً بالتماسك.. رفع رأسه ثم طأطأها.. تجاسر مرةً أخرى.. رفعها فتطأطأت.. أخذ يستجمع قواه، ثم أمسك ورقةً وأخذ يتلو قراراً لم يكن مفاجئاً؛ فقد كانوا يعلمون فحواه.. لقد قرر العثمانيون الانسحاب أمام فيالق البريطانيين التي أحكمت سيطرتها على القدس الشريف، سيغادر الجميع وتبقى مجموعة الرشاش الحادية عشرة بقيادة العريف «حسن إغدرلي» التابعة للسرية الثامنة من الكتيبة السادسة والثلاثين ضمن الفرقة العشرين في الجيش العثماني.

تقدم حسن في خطوة منتظمة نحو القائد.. أدّى التحية العسكرية في جدية كعادته، ثم تسلّم القرار.. أطلق تنهيدة شقّت صدره وسمعها الجميع.. زفر القائد هو الآخر بعدما فشل في إخفاء دموعه.. لأول مرة يبكي.. لأول مرة يرى نفسه ضعيفاً أمام نفسه وجنوده.. لأول مرة يجد نفسه بلا حيلة.. ليته نال الشهادة مع من نالوها بدلاً من هذا الصَّغَار!



كان الجنود العثمانيون ينسحبون حاملين حقائبهم على ظهورهم في هوانٍ لم يعرفوه من قبل، لم تكن في حقيقتها حقائب تحوي بعض عتادهم فحسب؛ لكنها كانت حملاً ثقيلاً من المهانة؛ فكيف سيلاقون الناس الذين استأمنوهم على المدينة المقدسة؟! وبم يجيبونهم إن سألوهم عن تركها فريسة في يد البريطانيين؟!

وقف العريف حسن يودّع زملاءه في مشهدٍ جنائزيٍّ مهيب، وجاء دور صديقه عثمان الذي كان سيغادر هو الآخر.. تعانقا كثيراً كثيراً.. سنوات قضياها معاً في الجيش العثماني.. كانا يفترقان أياماً قليلة في الإجازات ثم سرعان ما يعودان إلى ثكناتهما.. كم من ليالٍ قضياها يتسامران في ضوء القمر.. جمعتها لحظات من الحزن والسعادة والقلق والطمأنينة والقتال والسلم!

- ساحمني يا عثمان.. قد لا نلتقي في قابل الأيام!

- كيف ذلك يا حسن؛ لا بد لك من العودة وإن طال الانتظار!

- بل مهما طال الانتظار فلن أعود.

- أرجو ووك يا حسن...

لم يترك حسن فرصةً لصديقه... احتضنه مرةً ثانيةً وطال العناق بينهما حتى أطلق قائد المركبة بوقها.. كان الجميع في السيارة ينتظرون عثمان ليغادروا!

وقف الصحفي (إلخان بردقجي) يُجمل نظره يمنة ويسرة في باحات المسجد الأقصى، كان مشغولاً بالعمارة أكثر من أي شيء آخر.. إنَّ المسجد يتعرّض لمحاولات متتابة للهدم من جانب الصهاينة المحتلين.. صدق مَنْ قال: «ما لا حارس له فضائع»!

مرّت الدقائق سريعة و(بردقجي) يتجول داخل المسجد العتيق.. لكن شيئاً ما لفت نظره وأدهشه!! تُرى من هذا العجوز الذي يشبه العثمانيين القدامى ويجاهد للوقوف منتصباً في شموخ على قدميه الطويلتين؟!

أخذ يقترب منه شيئاً فشيئاً.. كانت ملامحه هي الأخرى تظهر شيئاً فشيئاً.. رجلٌ طويلٌ ذو شاربٍ حادٍّ مستدقٍ وبشرةٍ ضاربةٍ إلى الحمرة.. ووجه طويل تراكت عليه آثار السنين الخوالي.. ورأس ضخم تعلوه (أنوريّة)؛ لكنَّ الأعجب هو ذلك الزي

العسكري العثماني المهترئ الذي غلبت عليه الرُّقع بعدما زالت عنه ألوانه!

- مرحبا جَدِّي.. أراك تشبه الأتراك.. فهل أنت تركي؟!

- هه هه هه.. نعم؛ أنا العريف «حسن إغدرلي» قائد مجموعة الرشاش الحادية عشرة التابعة للسرية الثامنة من الكتيبة السادسة والثلاثين ضمن الفرقة العشرين في الجيش العثماني.

نظر الصحفي إلى رفقاته كأنها يشك في قوى الرجل العقلية؛ لكن العريف بادره:

- لستُ مجنوناً، أنا مكلفٌ بحراسة المسجد منذ تسلم البريطانيون القدس الشريف عام 1917م.

- لكن الدولة العثمانية سقطت وغادر جميع الجنود، و...

- ليس كذلك؛ بقي ثلاثة وخمسون جندياً.. وأنا آخرهم هنا!

- يا إلهي؛ كيف ذلك؟! نحن الآن في عام 1982، وهذا يعني أنك هنا منذ خمسة وستين عاماً.

- إن كنتَ تقصد منذ غادر العثمانيون المدينة فنعم؛ لكنني هنا قبل ذلك بسنوات!

- فلماذا لم تعد؟!

- كيف أترك القدس وحيدة دون حراسة؟! وكيف ألقى ربي؟! وماذا أقول لخير الأنام وسيد الأنبياء -صلى الله عليه وسلم- عندما يسألني عن مسراه الشريف؟! هل تريد أن يحزن النبي ويحزن القدس أيضاً؟!

- يا إلهي!! عجيب أمرك يا جَدِّي!

- ليس عجيباً.. ولو بذلنا مُهَجناً ما وفَّينا حق النبي علينا..

- !!!...

- قل لي يا بُني؛ متى تعود إلى الأناضول؟!

- غداً.



- تصل سالماً.. وأرجو أن تذهب إلى قرية (سنجق توكات) وتسأل عن النقيب مصطفى، إنه قائدي الذي كلفني بحراسة المسجد الأقصى وتركه أمانة في عنقي مع زملائي؛ فإذا ألفتته حياً قل له: إنَّ العريف (حسن إغدرلي) رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة حارس المسجد الأقصى لا يزال قائماً على حراسته كما تركته، ولم يترك نوبته صيفاً ولا شتاءً!

لم يجد الصحفي ما يقوله؛ فأجهش بالبكاء؛ لكن الجدد الذي بدأ يسعل بشدة ربت على كتفه وضمه إلى صدره قائلاً: تلك قضيتي؛ فلتكن قضيتك وقضية كل مسلم؛ وعندها ستعود القدس لنا، ويعود إلينا عزنا ومجدنا!

يقول بردقجي: مضت السنوات واحدة إثر أخرى، وفي يوم من أيام عام 1982 وصلتني برقية من القدس تخبرني بأنَّ العريف حسن قدم بعد خمسة وسبعين عاماً من الحراسة في أركان المسجد الأقصى ليقدم الحجة على الأمة بأكملها، ويلقى الله بيدين خاليتين من ذنب القدس الشريفة!